الفصل السابع عشر

حفل الكوكتيل[1]

إن تلك الأبعاد التى رسمها إليوت لخلق شخوصه فى المسرحية السالفة « عودة ائتلاف العائلة » قد لقيت نجاحاً ملحوظاً فى « حفل الكوكتيل » . كما أن المستويات المادية والروحية التى وضعها فى المسرحية السابقة والتى أبعدته أحياناً عن الحدث المسرحى كما اعترف هو بذلك على صفحات مجلة « الأتلانتيك الشهرية »[2] قد تركت عيباً فنياً فى تلك المسرحية . ولهذا نجده يبذل قصارى جهده فى « حفل الكوكتيل » لسد هذا النقص . وقد اعتمد فى ذلك اعتماداً كبيراً على « الحبكة » التى أخذت تتعقد بتعدد المواقف . كما أننا نحس بتطويرها كلما تقدمنا فى سياق المسرحية . هذا إلى أنه أخذ فى الإفصاح عن هذه المواقف فى المواضع المناسبة . ولم يتركنا حيارى إلا بالنسبة لشخصية واحدة أطلق عليها اسم « الزائر صاحب الشخصية المجهولة » الذى تبين لنا فى الفصل الثانى أنه السير هنرى هيركورت رايلى وهو طبيب نفسانى يعتمد على التحليل السيكولوجى فى علاج مرضاه .

وفى هذه المسرحية أيضاً نجد محاولات إليوت لمزج القديم بالحديث . فعاد بمخيلته إلى الأساطير اليونانية والمعتقدات الأولى التى سادت الشرق والغرب حول الرحلات المطهرية عند الإغريق وقدماء المصريين . وتركزت هذه الاتجاهات فى شخصية السير هنرى الذى اعتمد عليه إليوت فى إرساء معالم الحبكة المسرحية . فالأحداث تدور وتتقدم وتتعقد ثم تنبسط بالنسبة لهذه الشخصية التى أصبحت بمثابة الإله فى الأساطير القديمة . فله قدرة على التنبؤ بالمستقبل

---

(١) *The Cocktail Party*
ظهرت هذه المسرحية للمرة الأولى فى احتفال أدنبرا فى أغسطس سنة ١٩٤٩ .

(٢) "Atlantic Monthly"

وعلى تقويم اعوجاج من حوله. وهو فى كل ذلك إنما يهدف إلى بعثهم ولو رمزياً من جديد ، كما أنه يشبه إلى حد كبير أوزيريس إله الخصب والنماء عند قدماء المصريين . وقد أشار إليه إليوت من قبل فى قصيدته المشهورة « الأرض الخراب » ، فالسير هنرى كطبيب نفسانى يخصب حياة من يعرفوه إذ أنه يساعد على جمع شمل الأسر ويرجو لها نمواً وحياة مزدهرة فى جو عائلى بهيج .

أما عن هذه الشخصيات التى لها صلة بالسير هنرى فهذا ما يتضح لنا فى المشهد الأول من المسرحية إذ نجد أن لافينيا لا تميل إلى زوجها إدوارد تشمبرلين الذى يشتغل محامياً . فهى تحب كاتباً سينمائياً ناشئاً يدعى بيتر كوياب . وهو بدورة يحب فتاة تدعى سيليا كوبلستون وهى شاعرة . وسيليا أيضاً تحب إدوارد لكنه لا يبادلها الحب . وجميع هذه الشخصيات قد جاءت إلى مسكن إدوارد فى لندن لحضور حفل الكوكتيل . لكن زوجته لافينيا قد تركت المنزل بعد الظهيرة دون أن يعلم زوجها عن وجهتها شيئاً . ومن بين المدعوين أيضاً جوليا وهى سيدة ثرثارة غير محبوبة وأليكس (أو إسكندر) وهو رجل حاد الطبع يميل إلى التنقل والترحال .

وبعد انتهاء الحفل ينصرف المدعوون ويبقى السير هنرى بعض الوقت مع إدوارد ليؤكد له أن لافينيا ستعود إليه عما قريب . وقبل انصراف بيتر يخبر إدوارد بأنه على علاقة بسيليا وأنه أحبها لميلها إلى الفنون عامة . فكثيراً ما كان يتقابل معها فى الحفلات الموسيقية . وقد يدعوها أحياناً لتناول الشاى أو العشاء معه . لكن هذه العلاقة لم تستمر طويلا ، فلقد أحست فى لقائها الأخير معه أنه لم يكن فتى أحلامها ، فبدأت تختلق الأعذار وتتظاهر بالانشغال .

أما بيتر فقد عبر عن هذه الخبرة بأنها تجربته الأولى والأخيرة فى معرفة « حقيقية » المرأة ، ولهذا ينصحه إدوارد بترك لندن والجو الذى تحيا فيه سيليا ، ويمهد له فكرة العودة إلى كاليفورنيا لإنجاز أعماله السينمائية الخاصة بكتابة السيناريو والاتصال بالمخرجين هناك . كما أن إدوارد بدوره ، حينما

عادت سيليا إليه ثانية . قد أوضح لها بأنه يود أن ينهى علاقته معها وبخاصة وأن زوجته لاڤينيا ستعود إليه . وهذه العلاقة قد تكون سبباً فى تحطيم حياته الزوجية فينصحها بالابتعاد عنه .

وبعد تخلصه من هذا الحب . يمر إدوارد فى مرحلة مواجهة الذات التى كثيراً ما حدثنا عنها إليوت . فلقد بدأت ذاتية إدوارد فى التكشف ، وأخذت فى التبلور . وانبرت للصراع مع الإرادة . وعرف أن أى هروب من واقع هذا الصراع هو فى الحقيقة تهرب من مشكلة وجود الإنسان ، هو الاستسلام للأوهام والخيالات فى ضعف وذلة ومسكنة . وهذه الذاتية فى نظر إليوت هى الحارس الصامت على كيان الشخصية فى تقدمها ورفعتها .

وبينما إدوارد على هذا الحال فى مواجهته لذاتيته يحاسبها وتحاسبه حساباً عسيراً دون أن يتمكن من السيطرة عليها ، إذ بلاڤينيا تعود إليه فى عصر اليوم التالى لتخبره بأنها قضت معه خمس سنوات دون أن تحس للسعادة الزوجية طعماً ، إذ تبين لها بعد زواجهما بقليل أنه إنسان عابس لا يؤمن ببهجة الحياة . ومما زاد الطين بلة أنها وجدته غير متزن سيكولوجياً ، ولهذا نجده فى الفصل الثانى من المسرحية يسرع بالذهاب إلى السير هنرى الطبيب النفسانى ويشرح له ما يعانيه من ضمور فى الشخصية وأنه على وشك فقدانها تماماً . ويعلم فى عيادة الطبيب أنه هو الذى رتب أمر خروج لاڤينيا ثم عودتها ثانية فى اليوم التالى وذلك بالاتفاق مع جوليا وأليكس ، وأنه كان يهدف من وراء ذلك إلى تقوية رباط الزوجية بينهما ، إذ كان على شفا الانفصال وكادت أوصاله أن تتمزق . ونعلم نحن أيضاً من الحوار بينه وبين الطبيب النفسانى أنه بعد زواجه من لاڤينيا قد ذابت شخصيته أمام قوة إرادتها إلى درجة مريعة عبر عنها هو بقوله « أنها قد محت كيانى تماماً » ، فلم تعد له أية قدرة على مواجهة الحياة بصعابها ومشاكلها . وهذا الموقف يذكرنا بجبروت إيمى الأم العجوز فى مسرحية « عودة ائتلاف العائلة » فى علاقتها مع ابنها الأكبر هارى مع وجود اختلاف واضح بين

شخصيتى إدوارد وهارى . ولعلنا نتبين من وراء ذلك اهتمام إليوت بعلاج مشكلة حب المرأة للتملك والرغبة فى السيطرة . فها هو إدوارد يقول لطبيبه :

« حينما فكرت فى رحيلها ، أحسست بالتحلل يدب بين جوانحى
وصار وجودى فى حكم العدم . فهذا هو ما جنته علىّ !
إننى لا أطيق الحياة معها — فهذا ما لا قدرة لى على احتماله ؛
كما أننى لا أقدر على الحياة بدونها ؛ فلقد سلبتنى القدرة
على العيش بمفردى .
هذا هو ما جنته علىّ فى مدى خمس سنوات !
فلقد حوّلت عالمنا إلى مكان لا أستطيع أن أحيا فيه
إلا طبقاً لما تمليه من شروط »[1] .

وهكذا يضيق إدوارد ذرعاً بهذه الحياة ، فلا هو هانئ بمفرده ولا هو على وفاق أو وئام مع زوجته ؛ فهو يعانى من انقسام فى الشخصية التى أصبحت كية مهلهلة من الاتجاهات والمنازعات المتضاربة . وهنا يلعب الطبيب النفسانى السير هنرى دوراً غير عادى إذ يفاجئ إدوارد بدخول لافينيا إلى العيادة السيكولوجية لمواجهته بناء على ترتيب سابق معها ، ثم إنه لم يكتف بذلك بل أخذ يذيع سر علاقة إدوارد بالفتاة سيليا مما أذهل لافينيا . وبعد أن ألقى هذه القنبلة التى وقعت على مسمع لافينيا كالصاعقة ، أدار وجهه إليها وواجهها بحقيقة حبها لبيتر كويلب الذى هجرها لوقوعه فى غرام سيليا . وهكذا كشف الطبيب النفسانى

---

(١) "When I thought she had left me, I began to dissolve,
To cease to exist. That was what she had done to me !
I cannot live with her — that is now intolerable;
I cannot live without her, for she has made me incapable
Of having any existence of my own.
That is what she has done to me in five years together !
She has made the world a place I cannot live in
Except on her terms."
Ibid., *The Cocktail Party*. London 1950 — Reprinted 1953, p. 99.

أمر الاثنين بعد أن واجه كلاً منهما بحقيقة الأمر . ويستنتج من هذا الموقف أن كلا منهما غير قادر على الحب وهو لهذا ينصحهما بالعودة إلى عش الزوجية بعد فشلهما فى الخروج على تقاليده ومقتضياته .

وبعد انصراف إدوارد ولافينيا تجىء سيليا إلى العيادة النفسية بناء على نصيحة چوليا ، ويعلم السير هنرى من سيليا أنها تعانى من شعور قاتل بالوحدة المريرة ، فهى تعيش بمفردها فى شقة صغيرة بلندن وكانت تشاركها فيها إحدى قريباتها لكنها رحلت إلى أوربا . كما أن بقية أفراد عائلتها تعيش فى الريف وهى لا تميل إلى هذا اللون من الحياة . ومع أنها تضيق بحياة الريف إلا أنها أيضاً متبرمة بحياة المدينة لحب أهلها إلى التظاهر والخداع . فحياتهم كلها سراب ، وشعورهم نحو بعضهم البعض قائم على الزيف والافتعال . إذ لا وجود للمودة الحقيقية النابعة من الحب الصادق والإحساس الأمين . هذا إلى أن سيليا تعانى أيضاً من الشعور بالإثم وترد ذلك إلى تربيتها المحافظة الأولى . فهى تخشى هذا الشعور وتجزع منه وتتوهم أنه يطاردها ويلاحقها فى أى مكان حلت به ، كما أنها لا تستطيع الفرار أو التخلص منه ، ذلك أنه مختلط بمشاعر وأحاسيس أخرى كثيرة كالشعور بالفراغ فى محيط حياتها . وإحساسها بالفشل فى كل خطوة تخطوها إلى الأمام . وهى تود من أعماق قلبها أن تكفر عن كل ما بدا منها بعد أن أصبحت حياتها سلسلة من الحلقات المفرغة ، وأصبحت تؤمن بالخيال أكثر من إيمانها بالحقيقة . فلقد استهوتها الثعالب الإنسانية الماكرة بعيونها المتنمرة فغررت وضللت بها ، وهى تذكر علاقتها الماضية على أنها نزوات صبيانية ، وأنها لن تعود إلى مثل هذه الخبرات ثانية . فينصحها السير هنرى بالإقلاع عن كل هذه الذكريات وبالاندماج فى الروتين العادى للحياة دون أن تنتظر الكثير من الآخرين حتى لا تصاب بخيبة أمل ، على أن تكون على استعداد لروح التسامح ، فتعطى بأكثر مما تأخذ ، وتبذل فى سبيل الآخرين بأكثر مما تنتظر منهم . وينصحها أيضاً بعدم الانزواء بعيداً عن المجتمع بل عليها أن تلاقى

الصباح بنفس مشرقة وفى المساء تتقابل مع صديقاتها للحديث الطلى حول المدفأة .

لكن هذه الحلول لم تصادف هوى فى نفسها ، فما زالت تحس إحساساً عميقاً بأن المجتمع بكيانه الراهن ملىء بأساليب الحقد والكراهية ، فهى تؤثر الفرار منه وتأمل أن تجد الراحة والطمأنينة بعد اليأس والقنوط . ولهذا فإن الطبيب النفسانى يشير عليها بأن تسلك طريق الإيمان والمثل العليا ، فهو الطريق الوحيد الذى سينقلها خارج العالم بشره وخداعه ، وأهوائه وذكرياته ، ومطامعه ومغرياته . ترى هل سيكون للمصحة التى يرسل إليها مرضاه أى أثر فعال على مثل هذه الحالة ؟ إنها تتردد فى قبول الفكرة أولا لكنها قبلت أمام تأكيده لها بأنها ستخرج منها بأحسن حال مما هى عليه الآن .

وفى الفصل الثالث والأخير نعود ثانية إلى عائلة تشمبرلين لنجد لافينيا تعد العدة لحفل كوكتيل آخر بعد مضى عامين لمجموعة أخرى من الأصدقاء . ومع أنها لم تدع المجموعة الأولى من معارفها إلا أنهم جاءوا إلى الحفل الواحد بعد الآخر ، فها هى جوليا وأليكس الذى عاد فى الصباح من رحلة فى جزيرة نائية تدعى كنكانجا والسير هنرى ثم بيتر وقد عاد من كليفورنيا . وعلى ذكر اسم هذه الجزيرة تلهف الجميع لسماع تفاصيل الرحلة التى قام بها أليكس حيث القبائل تعيش على الفطرة وحيث القردة تخرب المساكن وكل ما يصادفها دون أن يمسها أهل الجزيرة بأى أذى إذ أنهم يقدسونها . ولقد سافرت سيليا إلى هذه الجزيرة بعد أن اشتغلت ممرضة إذ أن الأمراض والأوبئة متوطنة فى هذه الجزيرة . ولكنها لم تعمر طويلا فلقد قتلها أهل القرية التى كانت تعيش فيها بعد أن سهرت على رعايتهم وضحت كثيراً فى سبيل خدمتهم الصحية .

* * *

ولعلنا نتبين أن الطريق الذى سلكته سيليا طريق وعر ملىء بالآلام وألهالك ، وهو يشبه إلى حد كبير الطريق الذى سلكه بيكيت فى مسرحية « جريمة قتل

فى الكاتدرائية» أو الطريق الذى رسمه لنفسه هارى فى مسرحية «عودة ائتلاف العائلة» . وهو نفس الطريق أيضاً الذى تقدمت فيه جان دارك لتقود الجيوش الفرنسية إلى النصرة فى معاركها ضد الإنجليز فى القرن الخامس عشر كما حدثنا عنها برنارد شو . وإذا كان الإنجليز قد أحرقوا جان دارك بعد أن قبضوا عليها ، فإن أهل جزيرة كنكانجا قد صلبوا سيليا التى قبلت التضحية بنفس راضية . فقد تمكنت سيليا من السمو إلى مرحلة الإرادة الحرة بعد أن واجهت ذاتيتها وبعد أن أخضعتها وأذلتها فى سبيل ما تصبو إليه نفسها . إذ بعد أن تخلصت نهائياً من علاقتها بإدوارد ، ركزت كل همها فى خدمة الإنسانية حتى إذا ما أصبحت ذاتيتها طوع بنانها رحلت إلى جزيرة كنكانجا لتقدم لنا عملياً ما رسمته لنفسها نظرياً فى غير تردد وبدون مبالاة .

أما عن بيتر فهو ما زال فى أول الطريق يترنح بين كاليفورنيا ولندن . وبعد أن فقد عطف سيليا وحبها ، لم يجد بداً من التمسك بصناعة السينما ، فنى إشباع ميوله الفنية فى هذا الميدان تعويضاً له عما فقد ، وإعلاء لرغباته داخل محراب الفن . ومع أنه فى بداية الطريق ويرى معالمه واضحة أمامه إلا أنه غير مستعد للتضحية بذاتيته وإنكارها حتى يترسم خطوات سيليا ، فالشوط ما زال طويلا أمامه ، وتحقيق الأهداف العليا تتطلب منا ألماً وجهداً .

أما إدوارد ولافينيا فهما بعيدان عن معالم هذا الطريق ذلك أنهما قد خضعا لذاتيتهما بعد أن استمعا لمشورة السير هنرى الطبيب النفسانى ، كما أن علاقتهما لا تسمح بالتقدم أو السمو فروح التحفظ تظلل هذه العلاقة التى تقوم أيضاً على تحفز كل منهما بالآخر . هذا إلى أن الصراع واضح فى شخصية كل منهما وبخاصة فى محاولتهما الجرى وراء الحب خارج عش الزوجية ثم ارتدادهما فى يأس بعد أن فشل إدوارد فى حبه لسيليا ولافينيا فى حبها لبيتر كويلب . إن عنصر الأنانية متأصل فى نفسيتهما ولا يمكننا أن ننتظر ظهور أية بادرة للنمو والازدهار لعلاقة زوجية قائمة على حب الذات .

إن هذه العلاقة وغيرها من بقية العلاقات الأخرى فى المسرحية تبين لنا بوضوح أن مثل هذه الصلات غير مكتملة ، إذ أنها ترتكز على ضعف فى شخصيات القائمين بها ، فنموهم النفسى لم يكتمل بعد ، وجشعهم فى تفضيلهم لذاتياتهم قبل أى شىء آخر ، هو السبب الحقيقى الدفين لالتواء هذه العلاقات وانحرافها عن مجراها الطبيعى ، ذلك أنها — كما قال الطبيب النفسانى السير هنرى — لا تقوم على روح التسامح والبذل والتضحية فى سبيل الآخرين . فالخيوط التى تربط بعضهم بالبعض الآخر خيوط رثة بالية آيلة للتمزق ، فقد تقطعت أوصالها فى مناسبات شتى . هذا بالإضافة إلى شعورهم بالإفلاس العاطفى مما جعلهم أشبه بدمى لا حياة فيها ، فى اللحظة التى انسحبت فيها سيليا من حياة إدوارد تحول على حد تعبيرها إلى قطعة من المومياء ، لها مظهر الآدمية ، لكنها جثة هامدة خالية من الحركة والحياة .